الحراك المصطلحي البلاغيّ إلى حدود القرن الخامس للهجرة

(دراسة في ضوء علم المصطلح الحديث)

جمعة صبيحة
جامعة قرطاج
Sbiha. djemaa@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2017/02/04م
تاريخ القـــبول: 2017/03/10م

الملخص:

يتنــزل عملنا في دائرة المشاغل الفكرية التي تتعلق بالدلالة والخطاب. وقد سعينا من خلاله إلى النظر في وضع المصطلــح البلاغيّ في الــتراث العربي الأصيل، متوسّلين في ذلك بما وصلت إليه أيدينا من مراجع حديثــة مناسبة لهذا البحــث تتعلّق أساسا بعلم المصطلح. وقد تبيّن لنا ونحــن نستقرئ المباحث اللغوية في التراث أنّ الباحثين القدامى لم يكن لهم تمثّل واضح للمصطلحات البلاغية إذ كان وضع المصطلح مضطربا وكانت المفاهيم والتعريفات لديهم متداخلة ومختلفة، ولكن رغم ذلك فقد تمكّن القدامى من إنتاج رصيد مصطلحــيّ بلاغيّ هامّ تميّز بحركيّــة المفهوم وديناميته وذلك إلى حدود القــرن الخامس للهجرة، اتّخذه المحدثــون معينا أساسيّا في وضع قواميسهم ومعاجمهم لاسيّمــا أمام زحف المصطلحات اللسانيّة الحديثة التــي هــي في الأصل محصول عديد النظريّــات اللغويّة المتتالية خــصوصا فيما يتعلّق منهــا بعلوم الدلالة وتحليل الخطاب. وجعلوا من البحث المصطلحيّ علما قائم الذات وسموه بـ «علم المصطلح» باعتباره دراسة تطبيقية مرفولوجيّة للمصطلح في علاقته بمفهومه.

الكلمات المفاتيح:

الحراك – الدلالة – الخطاب – المصطلح البلاغيّ – علم المصطلح – التراث – المفهوم – المرفولوجيا.

Rhetorical lexical movement until the end of the fifth century: A semantic study

Djemaa Sabiha
Carthaj University. Tunisia
Sbiha. djemaa@gmail.com

Abstract:

Our work is situated within the intellectual activities of discourse and rhetoric. In this work, we are trying to scrutinize rhetorical lexis in the traditional heritage, in the light of recent literature on lexical sciences. We have realized that classical scholars did not use to have a clear representation of rhetorical semantics. The study of lexis used to be fuzzy and the concepts were different. Despite this fact, classical scholars were able to produce important lexical and semantic work characterized by the movement of lexis till the fifth century. Recent scholars have been using it as an important reference in their encyclopedic works, especially with the advance of recent linguistic vocabulary resulting from different linguistic theories that are related to semantic studies and discourse analysis. They have rendered lexical research a well-established science labeled "Lexical science " as it is a practical morphological study of the term related to the concept.

Keywords:

Movement – Lexis – Discourse – Rhetorical lexis – Lexical science – Heritage – Concept – Morphology.

إنّ مسألة المصطلح البلاغي في التراث العربي مسألة معقّدة حسب تقديري، نظرا إلى تعدّد مفاهيم المصطلح الواحد وتشعّبها واختلاف سبل تعريفها وتشتّتها وتراكم موادّها في كتب اللغويين ومصنّفاتهم ممّا جعل المصطلحات لا ترتقي إلى أن تكون علميّة دقيقة تضبطها معاجم وقواميس إلاّ في فترة متأخّرة. ويعود سبب اضطراب وضع المصطلح في التراث العربيّ إلى الاختلاف في استعمالاته وطرق صوغه. لذا لم نكن نجد لدى القدامى توافقا جذريّا في تعريف المصطلحات البلاغيّة واللغويّة عموما.

ومازال هذا الاضطراب في وضع المصطلح متواصلا إلى يومنا هذا[1] ولعلّ الأسباب في ذلك عديدة ويرتبط أهمّها باختلاف مرجعيات تكوين اللغويين العرب قدامى ومحدثين، فالجاحظ على سبيل المثال يغلب على تكوينه الطابع الأدبيّ الفنّي ويغلب على عبد القاهر الجرجاني تكوينه النحويّ، وتلك الاختلافات في التكوين ولو نسبيّا تؤدّي إلى اختلافات في الرؤى والتصوّرات وإن كان ذلك جزئيّا. ولكن رغم هذه الاختلافات فقد أنتج القدامى رصيدا مصطلحيّا نحويّا وبلاغيّا هامّا أصبح موردا ينهل منه المحدثون لوضع قواميسهم ومعاجمهم لاسيّما أمام زحف المصطلحات اللسانيّة الحديثة التي كانت محصول عديد النظريّات لاسيّما فيما يتعلّق منها بعلوم الدلالة وتحليل الخطاب وغيرها من العلوم.

تبيّن لنا من خلال البحوث في مجال التفكير البلاغي أنّ هذا التفكير يقوم على جهاز مصطلحيّ شأنه في ذلك شأن كلّ علم. فالمصطلح يمثل «صورة مكثفة للعلاقة العضوية القائمة بين العقل واللغة ويتصل أيضاً بالظواهر المعرفية. والمصطلحات في كل علم من العلوم هي بمنزلة النواة المركزية التي يمتد بها مجال الإشعاع المعرفي ويترسخ بها الاستقطاب الفكري»[2]. ونشاط القدامى في وضع مصطلحات علم البلاغة دليل على استيعابهم ذلك العلم وغيره من العلوم والفنون، لوعيهم بقيمة المصطلح في تحقيق التواصل من جهة وفي توحيد المعارف من جهة. والبحث في المصطلح متواصل إلى اليوم حتى غدا علما مكتملا هو «علم المصطلح» la terminologie وهو من العلوم اللغوية التطبيقية المتطوّرة جدّا يُعنى بدارسة المصطلح دراسة مورفولوجية مجردة وفي ارتباطه بالمفهوم الذي يعكسه. وقد حدّد فوستر E.Wuster مكان علم المصطلح بين أفراد فروع المعرفة بأنه مجال يربط علم اللغة بالمنطق وبعلم الوجود (الانطولوجيا) وبعلم المعلومات وبفروع العلم المختلفة[3]، «فالمصطلحات العلمية... عبارة عن مجموعة من الكلمات التي تم الاتفاق على استعمالها ... لتقوم بوظيفة تتمثل في تجسيد نتائج البحث ووضعها في قالب لغوي يضمن تواصلاً فعالاً ومفيداً بين مختلف فئات المستعملين»[4]. وذلك يعني أنّ تحديد مفاهيم الكلمات أو المصطلحات في أيّ علم أو معرفة يجعل نظام ذلك العلم أو تلك

(1) انظر: المسدي (عبد السلام)، قاموس اللسانيات، ص72 (مثلا) مصطلح Linguistique

(2) المسدي (عبد السلام)، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، ص 162 .

(3) حجازي (محمود فهمي)، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، ص 17 .

(4) حطاب (أحمد)، المصطلحات العلمية وأهميتها في مجال الترجمة، العلوم الطبيعية كنموذج «في الترجمة العلمية، ص185 203.

المعرفة متماسكا ويوفّر لغة مشتركة بين الباحثين في ذلك المجال لها ضوابط وحدود علمية.

ويمثّل ذلك الجهاز المصطلحي مفاتيح كلّ علم ويمثّل كذلك لغته الصوريّة التي تعبّر عنه، فهو «جزء مهم من اللغة كما في كل اللغات المعاصرة، باعتبارها مفاتيح المعرفة الإنسانية في شتى فروعها، ووسيلة التفاهم والتواصل بين الناس في مختلف المجالات العلمية والعملية»[1]. ولكن ما يميّز الجهاز المصطلحي لعلم البلاغة والنقد، أنّ مفاهيمه خضعت لكثير من التحوّل والتطوّر والاختلاف فغابت الدّقة والوضوح بشأن المصطلح الواحد إلى حدود عبد القاهر الجرجاني الذي بإدخاله النّحو في التفكير البلاغيّ عرّج بالمصطلحات البلاغيّة نحو وجهة لم تكن ربّما منتظرة، هي وجهة النحو لذا تحوّلت مضامين العديد من المصطلحات؛ إذ أخذت؛ تتشرّب مفاهيمها من مجال النحو. وهذه المسألة شغلت الكثير من الدارسين الذين اتّجهت همّتهم إلى وضع تحديد دقيق للمصطلحات البلاغية، فالجاحظ مثلا نراه يؤكّد في كلامه قيمة تدقيق الألفاظ والمصطلحات في قوله التالي: «... وهم تخيروا تلك الألفاظ لتلك المعاني، وهم اشتقوا لها من كلام العرب تلك الأسماء، وهم اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا بذلك سلفا لكل خلف وقدوة لكل تابع»[2]. فالمصطلح بهذا المعنى مرتبط بوضوح المفهوم الذي يدلّ عليه إذ إنّ: «استعمال اللغة بعناية وبطريقة صحيحة، وسيلة فعالة للمعاونة على التفكير القويم المباشر؛ ذلك أنه من الضروري لكي نعبّر بالكلمات عما نعنيه بالضبط أن تكون أذهاننا ذاتها مدركة تمامًا لما نعنيه، فنحن نفكّر ونستدلّ عن طريق الكلمات»[3].

ثمّ إنّ المصطلح الواحد تتحدد مفاهيمه بين بقيّة المصطلحات المنتمية إلى ذات التخصّص، كما أنّ المصطلح يتسم في بداية ظهوره بضبابية التحديد وتعدّد المفاهيم، لذا لا يكون المصطلح علميّا إلاّ إذا اكتملت المفاهيم والحدود فيكون له حقله المعرفي الذي يميّزه في إطار النظام الذي يكوّنه التخصّص. وبذلك يصبح المصطلح ذا سمات تميزه ويكون دالاّ مباشرا دقيقا ومحدّدا. ولا يتحقّق ذلك إلاّ بعد رحلة طويلة يمرّ بها المصطلح مفهوما ومضمونا.

ثمّ إنّ الحقول المعرفية تظلّ تتحدد دائماً بتحديد دلالات مصطلحاتها واستقرار مفاهيمها، وبقدر رواج المصطلحات وشيوعها وتقبل الباحثين والمهتمين لهذا المصطلح أو ذاك، يحقق العلم أو «الحقل المعرفي» ثبات منهجيته[4].

ونظرا إلى تعدّد المصطلحات في البلاغة القديمة التي اختلفت مفاهيمها لدى أصحابها لاسيّما منها التشبيه والاستعارة وكذلك اللفظ والمعنى والنظم على وجه التخصيص باعتبارها من المسائل الأساسية لدى علماء اللغة بوجه عام، فقد ارتأينا أن نركّز اهتمامنا على المصطلحات الثلاثة الأخيرة الأكثر شيوعا في تآليف اللغويين

(1) الخطيب (أحمد شفيق)، حول توحيد المصطلحات العلمية، ص8.

(2) الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص139.

(3) بيفريدج (و. إ)، فنّ البحث العلمي،ترجمة زكريا فهمي، مراجعة د/ أحمد مصطفى أحمد، ص15.

(4) السيد (نور الدين)، الأسلوبية وتحليل الخطاب، دراسة في النقد العربي الحديث، ج1، ص13.

ونعني بها «النظم» و«اللفظ» و«المعنى». فما يميّز هذه المصطلحات أنّها اكتسبت معاني جديدة في تفكير عبد القاهر وشهدت تطوّرا في دلالاتها تعكس تجربة عمل العقل عبر الزمن والتاريخ والحرص على البحث والمعرفة، ويتنزّل هذا الأمر اليوم فيما يسمّى بعلم تطوّر دلالات الألفاظ ونرى أثر تلك التطوّرات في الأوجه التالية:

(أ) من جهة المفهوم أو التصوّر concept

(ب) من جهة العلاقات

رأينا أن نبدأ بحثنا من النظر في أهمّ المصطلحات البلاغية التي تميّز بها تفكير عبد القاهر والتي تربطه بسابقيه من المفكّرين نعني بها النّظم واللّفظ والمعنى. فهذه المصطلحات حملت مفاهيم جديدة لم تكن معلومة قبل عبد القاهر وتكاد تكون مختلفة تماما عمّا وضعه لها الرجل، لذا فإنّ أهمّ الأسباب التي دفعتنا إلى تخيّر موضوع بحثنا هذا والذي قصدنا من خلاله الوقوف عند تفكير عبد القاهر الجرجاني هو التحوّل المفهومي الجذري والحراك الدلاليّ الذي حقّقه في مفاهيم تلك المصطلحات ممّا كان له انعكاس كبير على جوهر التفكير البلاغي لاسيّما في بنائه البلاغة على النحو.

لقد عرف مصطلح «النظم» عند عبد القاهر نقلة نوعيّة عندما دقّق له المفهوم وعندما جعله نظرية لم نعهدها مع سابقيه من البلاغيين أو النقاد أو النحاة وكلّ من تناول النّظم مصطلحا في تفكيره. فقد كان النظم عند هؤلاء مجرّد مصطلح يُذكر باعتباره عنصرا من عناصر البلاغة إلى جانب عناصر أخرى لعلّ أهمّها عنصري اللفظ والمعنى.

أمّا مصطلحا اللفظ والمعنى عند عبد القاهر فقد أصبحا ينضويان تحت مفهوم النظم ويمثلان عنصرين من عناصره.

وما لفت انتباهنا أيضا في تفكير عبد القاهر أنه أقام نظرية النظم على قوام نحوي يرى فيه فهم النصّ وبناء الكلام لا يكون إلا عن طريق النحو ردّا على من يرى المنطق هو الأساس مثلما أعلن عن ذلك في الدلائل وسنفسره في غضون بحثنا.

نضيف إلى ذلك أن عبد القاهر جعل للنحو مفهوما جديدا لا يقف عند حدّ الإعراب مثلما عهدناه لدى سابقيه من النحاة والبلاغيين.

كلّ هذه العوامل ستجعل من عملنا دراسة تاريخية دلالية للمفاهيم التي أحاطت بمصطلح النظّم والكشف عن مظاهر النمو فيه حتى نصل إلى مفهومه لدى عبد القاهر الجرجاني.

لذلك فإنّ منهج عملنا سيكون كالآتي: ننظر في المصطلح ثمّ مدلوله ثمّ مفهومه عند فِرق مختلفة من متكلمين وأدباء ونقاد وبلاغيين ونحّاة وبهذا المنهج سنكشف عن مظاهر النمّو والحراك لذلك المصطلح.

أمّا الغاية التي نروم تحقيقها من هذا البحث تأكيد التواصل والحراك المصطلحي والكشف عن التطوّر الذي يحصل في مفاهيم المصطلحات مما يثبت أمرا علميّا هامّا هو حياة اللغة باعتبار قبول مدلولات دوالها للتطوّر والنموّ من جهة وإثبات أنّ وضع المصطلح لأيّ فرع من فروع اللغة يعطي صبغة علمية للغة ويسهم في عقلنتها وتوحيدها بين مستعمليها.

تلك هي أهمّ النقاط التي سنحاول التطرّق إليها في بحثنا مركّزين اهتمامنا على تفكير عبد القاهر الجرجاني حيث استقرّ مصطلح النظم عنده وأصبح فعلا ينسب إليه.

1. المصطلح عقلنة للّغة:

تعتبر قضية المصطلحات قضية هامة أثارت اهتمام العرب منذ القديم لاسيما مع ظهور حركة الترجمة حيث أصبحوا يبحثون عن المصطلحات المناسبة في تعريب عديد العلوم والفنون الدّخلية.

إلاّ أنّ هذه القضية أصبحت تمسّ العلوم العربية ذاتها والفنون أيضا وأصبحوا يرون أنه لابدّ لكلّ علم من مصطلحات تمثّل مفاتيحه وتجعله يتميّز عن غيره من العلوم. من هذا المنطلق أصبح السجلّ المصطلحي هامّا جدّا فهو يمثّل الكشف المفهومي لكلّ علم. كذا أصبحت اللغة مجموعة من المصطلحات والعلامات وأصبح كلّ علم يصطنع لنفسه معجما خاصّا من اللغة يعبّر به عن نظامه.

والغاية من وضع الجهاز المصطلحيّ تتمثّل في السعي إلى التحكّم في الظواهر والقبض عليها في إطار نظام علمي تقعيدي يمثل لغة علمه الصورية الشكلية. ولا غرابة في ذلك خاصة بدخول علم المنطق الذي جاء ليقنن كلّ العلوم والفنون وبهذا المنحى أصبحنا نجد شيئين: «العلم ولغة العلم» التي تتمثل في جهازه المصطلحي. فالمصطلح إذن هو علامة مجرّدة ذات مفهوم محدّد. وقيمته أنّه ينظّم العلوم ويمكّن من توحيد الدوال بين لغات مختلفة.

وأخيرا يمكن القول إنَّ للمصطلح قيمة هامة تعكس لنا قدرة الإنسان على التجريد والسيطرة على محيطه بواسطة أنظمة المفاهيم التي يشكّلها[1].

إنّ دخول علم المنطق في الثقافة العربية أدّى إلى تقعيد عديد العلوم وحتى اللغة التي فَقدت بذلك العمل كلّ بعدها الإنشائي عندما أصبحت تتجسد في معايير ومقاييس، وأصبحنا نجد فيها علوما شتى مثل علم النحو الذي هو مجموعة من القواعد والقوانين والمصطلحات وعلم الأدب وعلم النقد وعلم البلاغة وغيرها كثير، فكلّ علم من هذه العلوم له مصطلحات خاصّة به. وحسب طبيعة موضوع بحثنا سنركّز اهتمامنا على «المصطلح البلاغيّ» إلى حدّ عبد القاهر الجرجاني، وتحديدا مصطلح «النظم» لما مثّله من إشكال لدى مستعمليه من الباحثين، لذا سنتبيّن مضامين هذا المصطلح وأهمّ المفاهيم التي عرفها إلى حدّ استقراره عند الجرجاني.

2. مصطلح «النّظم» قبل عبد القاهر الجرجاني:

اعتمدنا في هذا المجال ما وضعه الأستاذ توفيق الزيدي في كتابه «جدلية المصطلح والنظريّة النقديّة». فقد بيّن أنّ النظّم كمصطلح مرّ بثلاث مراحل هي «وضع الكمون ووضع التولّد ووضع الضبط»[2].

ويرى الأستاذ الزيدي أنّ وضع الكمون «يشكّل المولّدات الرئيسية لمصطلح النّظم... ونواة تلك

(1) مجموعة من الأساتذة الجامعيّن، تأسيس القضيّة الاصطلاحية، ص97.
(2) المرجع نفسه، ص487.

المولـدّات هي ما جاء في النصّ القرآني من وصف لحكمـة الله في الكون تمثلـت في إقامة نظام كوني دقيـق الحركة، محـدّد المقاصد»[1] وهـذه الآيات منها ما خصّ الإنسان[2]. لإظهار النظام الكونيّ، ومنهـا ما خـصّ الطبيعـة[3] ومنها مـا جاء عن قـدرة الله علـى تحويـل الحركـة دون أن ينتقض النظام[4].

فالله تعالى بيّن إذن، من خلال آياته أنّ الوجود يحكمـه النّظام ومن هنا تولدّت فكرة النظام عند المفكرين العرب وإن خلا النصّ القرآني من مادّة «ن.ظ.م» علـى حـدّ عبارة الزيـدي: «مما يجعلنا نقول بأنّ مصطلح النظم في هذا المستوى إنّما هو في وضع كمون لا يظهر منه إلاّ المتصوّر الذي تبرزه تلك الصور التي حوتها الآيات المذكورة»[5].

أما الوضع الثاني الذي وصفه الزيدي «بالتولّد» فهـو موجود في الخطـاب الإنـساني عندما حاول الباحثـون النظر في أسبـاب الإعجـاز في القرآن وعندما درسوا النصّ الأدبي.

فبالنسبـة إلى دارسي الإعجـاز أي المتكلّمـين فقـد عـبّروا عـن مفهـوم «النظـم» بمصطلحات عديـدة، فمثلا الرمـاني ذكر مصطلـح «النظم» عندمـا تحـدّث عمـا يسميـه «تعديل النظـم»[6] قيـاسا على تعديل الحـروف في التأليف[7]. مثلما ذكـر أيضا مصطلحي «التأليـف» و«التلاؤم» وعن مزيّة التـلاؤم يقول: «والفائـدة في التلاؤم حسن الكلام في السمع وسهولته في اللفظ وتقبل للمعنى لـه في النفـس بمـا يـرد لها من حـسن للـصورة وطريـق الدلالـة»[8]. ونجد عند الخطابـي أيضا مصطلحـات عديـدة متعلّقـة «بالنظـم» في كتابه «بيـان إعجاز القرآن»، فمن بين هذه المصطلحات نذكر: النظم المنظـوم الانتظام الائتلاف التأليف التلاؤم... وغيرها كثير[9] ويبيّن الزيدي أنّ «هذا التنـوّع في المصطلـح يعـود في أغلبـه إلى وظيفـة التفـسير أو التأكيـد بالـترادف»[10] ومـن بـين مـا أورده الخطابي حول إعجاز القـرآن في نظمه قوله: «ولا تـرى نظما أحسن تأليفـا وأشد تلاؤما وتـشاكلا مـن نظمه» وقولـه أيـضا: «وجد معظم كلامه مبنيا مؤلّفا»[11].

ومـن المتكلّمـين أيـضا الذيـن استعملـوا المصطلحات المعبّرة عن النظم نذكر الباقلاني في كتابـه «إعجاز القرآن» فقـد ذكر مصطلح النظم نفسه والـضمّ والتأليف والرصف والجمع والنسج والتلاؤم[12]. وممّـا أورده قوله: «وقد تأملنا نظم القرآن، فوجدنا جميع ما يتصرّف فيه من الوجوه التي قدّمنا ذكرها على حدّ واحد في حسن النظم وبديع التأليف والرصف»[13].

كذا نكون قـد تعرّضنا إلى أهـمّ المصطلحات المعـبرة عـن مفهـوم النظـم قبـل عبـد القاهـر

(1) انظر الآية 6 من سورة آل عمران وآية 5 من سورة الحج والآيات 8-7-6 من سورة الانفطار.
(2) انظر آية 22 من سورة البقرة.
(3) انظر آية 27 من سورة آل عمران.
(4) الزيدي (توفيق): جدلية المصطلح والنظريّة النقديّة، ط1، ص488.
(5) الرماني، النكت في إعجاز القرآن، ص107.
(6) المصدر نفسه، ص107.
(7) المصدر نفسه، ص 94.
(8) المصدر نفسه، ص 96.
(9) الخطابي، بيان إعجاز القرآن، ص 70-8/5-39-36-35-28-27-26.
(10) المصدر نفسه، ص493.
(11) المصدر نفسه، ص 35
(12) الباقلاني، إعجاز القرآن، ص-117-116-56-55-53-52-47-45-21 243-196-178-175-124).
(13) المصدر نفسه، ص55.

الجرجاني لدى دارسي الإعجاز. ولكن سنتبيّن ونحن ندرس مصطلح النظم عند عبد القاهر أنه شتان ما بين مفهوم النظم عنده ومفهومه عند هؤلاء، فنظمهم لا معنى له، لا مفهوم له، فهم يضعون المصطلح دون توضيح له أو تدقيق كأنه جاء عرضيا فانظر إلى أي واحد من هؤلاء المتكلمين، فهل تجده قد فسر لنا مفهوم النّظم؟ فهو عندهم مجرّد كلمة ولكن عند عبد القاهر فهو غير ذلك تماما وسنوضّحه لاحقا في غضون بحثنا؛ إذ سنرى الفرق بين «نظم» عبد القاهر الذي له أسسه النحويّة وشروطه وبين النظم لدى هؤلاء إذ جاء يتردّد حسب حمّادي صمّود بين معنيين هما:

- المعنى الاصطلاحي... وهو أسلوب الكتابة وطريقة التأليف بين وحدات اللغة ومنهج تعليق بعضها ببعض...
- ومعنى أفانين القول وأجناس الأدب وأنماط الكتابة»[1].

يقول صمود: «الخطابي استعمل الكلمة أو ما اشتق منها اثنتي عشرة مرّة وأجراها على «المعنيين»، ولم يخرج الباقلاني في استعماله عن هذه الشبكة...»[2]. نتبيّن ممّا سبق أنّ اللفظ المعبّر به عن النظم واحد ولكن معانيه مختلفة عند من سبق الجرجاني في تناول موضوع الإعجاز.

ولكن إلى جانب «النظم» أحد أصول الإعجاز القرآني، تناول الدارسون قبل عبد القاهر أصولا أخرى لعلّ أهمّها ما تعلّق بصفات «اللفظ» و«المعنى».

(1) صمود (حمادي)، من تجليات الخطاب البلاغي، ص40.
(2) المرجع نفسه، ص41.

فمن الأوائل الذين ألمحوا إلى فكرة النظم في علاقته باللفظ والمعنى وهو يبحث في قضية الإعجاز القرآني نذكر الخطابي (388 هـ) الذي بيّن وهو يحلل بعض الآيات ويحاول فهمها أن الكلام يقوم على ثلاثة عناصر هي لفظ حامل ومعنى به قائم ورباط لها ناظم. فهو يقول: وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشدّ تلاؤما وتشاكلا من نظمه».

ويضيف قائلا: «واعلم أن القرآن إنّما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني»[3].

إنّ الإعجاز حسب الخطاب يتأتى من اجتماع عناصر ثلاثة هي الألفاظ في فصاحتها وعذوبتها والمعاني في صحّتها والنظم في تأليفه وتلاؤمه مثلما وضّحت ذلك أقوالُه.

وحدّد الخطابي خصائص اللفظ، فهو يرى أنّ البلاغة إنما تتحقق من وضع كلّ لفظة في موضعها الأخص بها من الكلام لأنّ تغير مكانها يؤدّي إما إلى تغير المعنى فيفسد بذلك الكلام وإما إلى ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة. من هذا المبدأ تبرز بلاغة النظم بما هو دقة اختيار اللفظ في موضعه[4].

ولكن تتطوّر فكرة النظم فيما بعد عند الخطابي فتتجاوز دقة اختيار اللفظ في موضعه

(3) بيان إعجاز القرآن، ص27.
(4) المصدر نفسه، انظر تحليله للآية 6 من سورةص، والآية 4 من سورة المؤمنون في كتابه، ص43.

لتشمل كلّ نظام الكلام وهو في تركيب كامل تتعلق اللفظة فيه بمن سبقها ومن لحقها[1].

ونستنتج ممّا سبق أنّ البلاغة عند الخطابي تتحقق بتوفّر ثلاثة عناصر هي النظم واللفظ والمعنى وهي مصطلحات ذكرها الخطابي صراحة في كتابه ولكن ليمثل كلّ واحد منها عنصرا من البلاغة.

ومن المتكلّمين أيضا الذين استعملوا مصطلحي اللفظ والمعنى نذكر القاضي عبد الجبار (415 هـ) الذي بيّن في كتابه «إعجاز القرآن» أنّ الكلام يفصح بأمرين: جزالة لفظه وحسن معناه، ونذكر أيضا الرّماني من قبله الذي عرّف البلاغة بأنها «إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ»[2].

تلك أهمّ مصطلحات البلاغة التي تردّدت في كتب الإعجاز تعكس تقارب البحوث من جهة الأفكار والرؤى والتصوّرات وتعكس أيضا حراكا في مستوى الدلالة والمفهوم وتواصلا معرفيّا بين الباحثين.

وذات المصطلحات البلاغية تكرّرت في كتب دارسي الأدب قبل عبد القاهر نعني بها النظم واللفظ والمعنى. وسنحاول أن ننظر في المفاهيم التي حملتها تلك المصطلحات في مجال الأدب.

من المصطلحات التي عبّر بها القدامى عن «النظم» في دراسة النصّ الأدبي ما أورده الجاحظ (ت 255 هـ) من حديث حول مفهوم الكلام مثل كلمة «مؤتلف» و«متجاور» و«النظام»[3].

أمّا حديثه عن اللفظ والمعنى فهو كثير وتكرّر ذكر هذين المصطلحين كثيرا أيضا في البيان وهو يحدّد مقاييس الشعر فمن أقواله مثلا «المعاني مطروحة في الطريق» و «إنما الشعر ضرب من النسج وجنس من التصوير»[4].

فما نلاحظه في هذا الكلام وجود كلمة «نسج» و«تصوير» وهما ممّا يعبّر عن معنى النظم وعن معنى اللفظ لديه أيضا، لأنّ اللفظ حسب الجاحظ يعني طريقة التعبير؛ أي العبارة التي بها نصنع المعاني.

وممّا يميّز الجاحظ أنه يفاضل بين الألفاظ والمعاني وهذه الفكرة استمرت طيلة ثلاثة قرون تقريبا حتى جاء عبد القاهر الجرجاني الذي صنع الحدث بالمناسبة بينهما عن طريق الأغراض والمقاصد والنظم هو الذي يضمّها جميعا. ومن المصطلحات أيضا التي نجدها عند أهل الأدب المعبرة عن معنى النظم مصطلح «الحوك» وابن فارس يعرّف الحوك: «الحاء والواو والكاف ضمّ الشيء إلى الشيء ومن ذلك حوك الثياب والشعر»[5] ونجد لديه أيضا مصطلح «البناء» الدال على معنى «النظم» يقول «الباء والنون والياء أصل واحد، وهو بناء الشيء بضمّ بعضه إلى بعض»[6].

وممّا يعبّر به العسكري (ت 396 هـ) عن معنى النظم قوله أجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل والخطب والشعر، وجميعها تحتاج إلى حسن التأليف وجودة التركيب»[7].

(1) المصدر نفسه، انظر تحليله للآيات 19-18-17-16 من سورة المدّثر.
(2) النكت في إعجاز القرآن، ص76-75.
(3) البيان والتبيين، ص67.
(4) المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
(5) الرازي (أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني أبو الحسين)، معجم مقاييس اللغة، 2/121.
(6) المصدر نفسه، 1/202
(7) العسكري (أبو هلال)، الصناعتين، ص179.

ومن مشتقات (ن.ظ.م) مصطلح النظام «الذي ذكره ابن وهب وهو يتحدّث عن أركان البلاغة فيقول: «وزدنا حسن النظام لأنه قد يتكلم الفصيح بالكلام الحسن الآتي على المعنى ولا يحسن ترتيب ألفاظه وتصيير كلّ واحدة منها مع ما يشاكلها، فلا يقع ذلك موقعه»[1].

نلاحظ في هذا الكلام حضور المصطلحات الثلاثة المؤسّسة للبلاغة وهي «حسن النظام» و«حسن ترتيب الألفاظ» لـ«يحسن المعنى»، ومما أورده العسكري حول مفهوم البلاغة قوله: «البلاغة كلّ ما تبلّغ به المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه كتمكّنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن وإنما جعلنا حسن المعرض وقبول الصورة شرطا في البلاغة، لأنّ الكلام إذا كانت عبارته رثّة ومعرضة خلقا لم يسم بليغا، وإن كان مفهوم المعنى، مكشوف المغزى»[2].

تلك هي أهم المصطلحات التي عبّر بها أصحابها عن معنى النظم في النصوص الأدبية قبل عبد القاهر ومنها مصطلح النسج والحوك والضمّ والنظام... ومن المصطلحات التي عبّرت عن معنى اللفظ نجد مصطلح «التصوير» والصورة و«الصياغة» و«المعرض» و«العبارة» وغير ذلك كثير. أما مصطلح المعنى فهو مذكور بلفظه كثيرا ولكن كثيرا ما تعلّق بمصطلح الفهم والإفهام والوضوح والكشف.

إلاّ أنّ ما نلاحظه أنّ تلك المصطلحات كلها جاءت متفرّقة لا رابط بينها فالنظم يُذكر وحده معزولا ومن معانيه الشائعة التلاؤم والتأليف وغيرهما وكذلك اللفظ والمعنى يذكران منفصلين والاهتمام كان موجها أكثر نحو اللفظ وينسبون كل المزية إليه.

هكذا تبيّنا أهمّ المصطلحات المعبّرة عن النظم واللفظ والمعنى قبل عبد القاهر وأهمّ معانيها ومفاهيمها. فكيف عبّر الجرجاني عنها في مؤلّفاته؟

3. مصطلح النظم عند عبد القاهر الجرجاني

يصل مصطلح النظم عند عبد القاهر إلى مرحلة «الضبط» مثلما عبر عن ذلك الزيدي وهي المرحلة النهائيّة تقريبا التي وصل إليها ذلك المصطلح في البلاغة القديمة.

انطلق الجرجاني وهو يؤسس لنظرية «النظم»، من التراث. فهو يقول مبرزا قيمة التراث في نشأته وتواصله: وإذا كنّا نعلم أنّ استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبلغاء الذين تقدّموا في الأزمنة، وأنهم فجروا لهم ينابيع القول فاستقوا، ومثّلوا لهم مثلا في البلاغة، فاحتذوا، إذن لم يبلغوا شأو ما بلغوا، ولم يدرّ لهم من فروع القول ما درّ، ولو أنّ طباعا لم تشرب من مائهم ولم تغذ بجناهم، ولم يكن حالهم في الاكتساب منهم والاستمداد من ثمار قرائحهم، وتشمّم الذي فاح من روائحهم، حال النحل التي تغتذي بأريج الأنوار وطيب الأزهار، وتملأ أجوافها من تلك اللّطائف. إذن لكان الجاحظ وغير الجاحظ في عداد عامة زمانهم»[3].

(1) الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، ص77.

(2) العسكري، الصناعتين، ص16.

(3) الرسالة الشافية، ص136-135.

إلاّ أنّ هـذا لا يمنـع أن يكـون للرجـل مواقف سلبيـة ردّا علـى عـدّة أفـكار منها رفـضه لموقف المعتزلة القائلة بالصرفة في الإعجاز.

ثـمّ ردّه على من يعتبر الإعجـاز في اللّفظ وهو أصوات مسموعة، (أهل اللّفظ) (الجاحظ).

وردّه أيـضا على مـن يرى الإعجـاز في معاني المفردات. مثلما يردّ أيضا على من يرجع الإعجاز إلى الضمّ والتأليف على طريقة مخصوصة (مثال القاضي عبد الجبار).

انطلاقـا من هـذه الأفـكار بنى عبـد القاهر تصوّره «للنظـم». وأوّل تجديد وضعه عبد القاهر أنه جعل «النظم» «نظرية» ومصطلحا قائما بذاته لـه مفهومه الذي يميزه، هذا المفهـوم أسّسه على النّحـو فسأهم بذلك في تطوّر البلاغة العربيّة؛ إذ دخول النحو أمدّها بعلم المعاني وهو علم أصبحنا نـرى صداه اليـوم في مـا يسمّى بـ«علـم الدلالة». واتجه عبـد القاهر إلى النحـو كأساس للرّفع من مستوى الخطاب وأفسح المجال بنظريّته لعديد من الظواهر التي اعتمدها النحاة عندما عرّف النظم بأنه «توخي معاني النحو في معاني الكلم»[1].

إنّ أوّل تجـاوز حقّقه الجرجـاني هو أنّه جعل مفهـوم النظم أكثر دقّة ولم يتركـه غامضا مثلما هو الأمر لـدى سابقيه وهذا التعريف للنظم نجد عبد القاهر قـد كرّره في الدلائل بطـرق عدّة[2]. ويجعـل له حـدودا تتمثّل في معرفـة قوانين النحو ومناهجـه ووجوهه وفروقه؛ إذ «ليس النّظم إلاّ أن تـضع كلامك الوضع الـذي يقتضيه علـم النحو» على حدّ تعبيره[3].

ويتّخـذ النّحـو عند عبد القاهـر معنى جديدا مخالفا لما كنّا نألفه لدى سابقيه وهو اعتبارهم أنّ النحـو يقف في حدود الإعـراب. في حين أنّ النحو عنـد الجرجاني يشمل القوانـين والمعاني والوجوه والفروق من تقـديم وتأخير وحذف وفصل ووصل وزيـادة وإضمـار وغيرها. وكلّ ذلك هـو «النظم» الذي يكـون بحسب المقـاصد والأغراض وبحسب ترتيب المعاني في النفس.

ذلك هو المفهوم الجديد الذي وضعه الجرجاني لمصطلـح «النظـم» وقـد أحاط عبـد القاهر هذا المصطلح بمجموعـة من المصطلحات المشتقة من جـذره (ن.ظ.م) مثل «كلم منظومـة» و«الناظم» ونظـم»[4]. وقد ذكرهـا أدوات يعبّر بها عن طرق إنتاج الكلام وإنشائه.

4. ردود الجرجاني:

سبق أن ذكرنا أنّ نظريّة النظم جاءت ردّا على عـدّة قضايا رفضها عبد القاهـر لاسيّما ما أورده أصحـاب اللفظ حول مفهوم «النظـم» وما أوردوه حول علاقة اللفظ والمعنى.

فقد رفـض الجرجاني القـول بنظم الحروف وأنّ الإعجاز يكمن في اللفظ وهو أصوات مسموعة، ودعـا في مقابل ذلـك إلى نظم الكلـم فهو يقول: «ومـمـا يجب إحكامه عقب هذا الفصل الفرق بين

(1) الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز.
(2) المصدر نفسه، نظر: ص400-398-359-122-121.
(3) المصدر نفسه، ص117.
(4) المصدر نفسه، ص94.

قولنا حروف منظومة وكلم منظومة. وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى ولا الناظم لها في ذلك بمقتف رسما في العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمها ما تحرّاه... أمّا نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني وترتبها على حسب ترتيب المعاني في النفس...[1].

وأما الفكرة الثانية التي رفضها عبد القاهر فتتمثّل في القول بأنّ المزيّة تكمن في اللفظ دون المعنى مما أدّى إلى الفصل والمفاضلة بينهما مثلما وجدنا ذلك عند الجاحظ الذي قال إن «المعاني مطروحة في الطريق... وإنما الشعر ضرب من النسج وجنس من التصوير»[2] في حين بيّن عبد القاهر أن البلاغة تتحقق من علاقة اللفظ بالمعنى؛ إذ «معلوم أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض»[3] مثلما رفض أن تكون البلاغة في الألفاظ المفردة وهي مقطوعة عن النظام، يقول: «علمت أنّ الفصاحة و البلاغة وسائر ما يجري في طريقهما أوصاف راجعة إلى المعاني وإلى ما يدلّ عليه بالألفاظ دون الألفاظ أنفسها»[4] ويضيف قائلا : «إنّ المزية التي من أجلها نصف اللفظ في شأننا هذا بأنه فصيح، مزية تحدث من بعد أن لا تكون، وتظهر في الكلم بعد أن يدخلها النظم، وهذا شيء إن أنت طلبته فيها وقد جئت بها أفراد لم ترم فيها نظما، ولم تحدث لها تأليفا طلبت محالا»[5].

وغيرها من الخصائص التي أسندها الجرجاني إلى اللفظ ورفضها وأكد بالحجج والأدلة أنّ كلّ تلك الخصائص إنما تسند إلى النظم.

وأما الفكرة الرابعة التي رفضها عبد القاهر والتي تتمثل في ردّ الإعجاز إلى الضم على طريقة مخصوصة فهي توجّه أساسا إلى القاضي عبد الجبار الذي قال: «اعلم أنّ الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلم وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة»[6]، وكان ردّ عبد القاهر على هذه الفكرة بأن زاد توضيح هذه الطريقة وتفسيرها فيبين أنّ الضمّ أو النظم إنما يكون بتوخي معاني النحو في معاني الكلم. يقول الجرجاني وهو يشير بكلّ صراحة إلى القائلين بالضمّ على طريقة مخصوصة :« وذلك أنهم لما قالوا إن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلمات وإنما تظهر بالضم على طريقة مخصوصة، فقولهم بالضم لا يصحّ أن يراد به النطق باللفظة بعد اللفظة من غير اتصال يكون بين معنييهما لأنه لو جاز أن يكون مجرّد ضم اللفظ إلى اللفظ تأثير في الفصاحة كان ينبغي إذا قيل ضحك خرج أن يحدث من ضمّ خرج إلى ضحك فصاحة وإذا بطل ذلك لم يبق إلاّ أن يحدث من ضمّ الكلمة إلى الكلمة توخّي معنى من معاني «النحو في ما بينها»[7].

إنّ عبد القاهر يؤكد في كلامه أهميّة التركيب في دراسة النظم ووجوهه وفروقه الدلالية يقول «مما ينبغي أن يعلمه الإنسان ويجعله على ذكر

(1) المصدر الإعجاز، ص94.
(2) البيان والتبيين، ج1.
(3) دلائل الإعجاز، ص93.
(4) المصدر نفسه، ص82.
(5) المصدر نفسه، ص275. أُنظر تحليله للآية «اشتعل الرأس شيبا».
(6) همداني (عبد الجبار)، المغني في أبواب التوحيد والعدل، ج16، ص199.
(7) دلائل الإعجاز، ص359.

أنــه لا يتصوّر أن يتعلّق الفكر بمعاني الكلم أفرادا ومجرّدة من معاني النحو[1].

ثمّ بين أنّ علــم النحو لا حدود له يقول: «اعلم أن الفــروق والوجــوه كثــيرة ليــس لهــا غاية تقف عندها»[2].

فمــن كلامــه ذاك نتبــيّن أن النظــم في نظــر الجرجاني عــالم واسع وطرقه عديــدة ولكنها في الحقيقــة تخــضع لأمر هــامّ هو مقــصد الناظم ومقامه وترتيــب معانيه في نفسه، ذلك هو مفهوم «النظــم» عنده فهو مفهوم تحيــط به مصطلحات من أصول نحويّة هــي الإعراب والقوانين النحوية والأحــكام والأصول والوجــوه والفــروق والمعــاني النحويــة. فالمعنى عند الجرجاني هو معنى نحوي بــالأساس يتحقق في «النظم» الذي تعــود إليه كل مزيّــة وناظم الكلام هو المتحكّــم في كلّ ذلك فهو العامــل الحقيقــيّ والفعلــيّ في كلّ عمليّــة كلام أو تخاطب.

وإنّ العلاقــة بــين الألفاظ والمعــاني إنما تقوم على التلازم والمناسبة حسب الأغراض والمقاصد والمقــام و«ليس من فضل ومزية إلاّ بحسب الموضع «والوجوه والفروق» يحدثها لك التأليف ويقتضيها الغرض الذي تؤم والمعنى الذي تقصد»[3].

تلك هي أهمّ المحطات[4] التي مرّ بها مصطلح النظــم واللفــظ والمعنــى إلى حــدّ عبــد القاهــر الجرجــاني حاولنا تحديدها من خلال استقرائنا لمؤلفــات مفكرين لهم مشاغل علميّة مختلفة تبيّنا من خلالها أنّ مفاهيــم هذه المصطلحات شهدت تحــوّلا وتطوّرا هامّــين يعكسان من جهــة ضبابيّة المفهــوم ومن جهة أخرى جهــد الباحثين في وضع العلوم وهو جهــد نثمّنه لهم وجديــر بالتنويه لأنّه يعكــس حــرص الباحثــين علــى تحقيــق استقرار وابتكار ضوابط علميّــة تذهب بالحضارة العربية نحو التقدّم والازدهار ووضع معارف وعلوم قائمة الــذات. لقــد كان التطــوّر من العــام إلى الخاص ومن الغامض إلى الواضح ومن الشامل إلى المدقق حتــى انتهــى بــه الأمــر إلى التنظــير العلمي عند الجرجــاني وأصبحنا نتحدّث فعــلا عن «نظرية» تنــسب إليه هــي نظريــة «النظم» لهــا موضوعها وقوانينها وأهدافها تتلخّص أساسا في آليّات فهم النص وإنشاء الخطاب).

ولكــن مــا نؤاخذه عــن الجرجــاني أنّ مواقفه جــاءت متناقــضة تــتردّد بــين آراء القدامى وبين مراجعــه الخّــاصة خــصوصا فيما يتعلّــق بثنائية اللّفــظ والمعنى والعلاقة الجامعــة بينهما فأحيانا نجده يتبنى مواقف سابقيه التي ترى تبعية اللفظ للمعنــى عندما يقول: «إنّ الألفاظ إذا كانت أوعية للمعاني فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها»[5]. وفي قوله: «...اللفظ تبع للمعنى في النظم»[6].

وأحيانا أخرى يؤكّد التلازم بين اللفظ والمعنى وذلك في قوله: «إنا لو فرضنا أن تخلو الألفاظ من المعاني لم يتصوّر أن يجب فيها نظم»[7].

وكذلــك الأمر فيما يتعلّــق بالمعنى، فقد جاءت آراء الجرجاني تــتردد بين مفاهيم القدامى وبين

(1) المصدر نفسه، ص269.
(2) المصدر نفسه، ص66.
(3) المصدر نفسه، ص246.
(4) محمود (زكي نجيب)، حصاد السنين، ص 54
(5) دلائل الإعجاز، ص44.
(6) المصدر نفسه، ص46.
(7) المصدر نفسه، ص306.

رؤيته لها؛ إذ نجده يتحدّث عن المعنى المعجمي في قوله: «تعنى بالمعنى من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة»[1]. وعن المعنى الحاصل من النّظم وعن معنى المعنى الناتج عن الاستعمال المجازي، وتحدّث أيضا عن فروق الدلالات الناتجة عن اختلاف وجوه النظم ولكن أهم إضافة حققها عبد القاهر هي حديثه عن المعنى النحوي.

أمّا التجاوز الآخر الذي نجده في التفكير البلاغي للجرجاني هو جعله اللفظ والمعنى من مقوّمات النظم ولكن برابط يجمع بينهما وهو أساسا رابط نحوي ذاك ما قصده بقوله إن النظم «توخى معاني النحو في معاني الكلم».

5. صدى النظام المصطلحيّ القديم في الفكر اللسانيّ الحديث:

إنّ ما أنجزه اللغويّون القدامى من بحوث في مجال المصطلح عبر محطّات تاريخيّة مختلفة كانوا يسعون من خلالها إلى التخصّص بغية توحيد المعارف والعلوم، يعكس جهدا عظيما جديرا بالتّقدير والاعتراف. ونرى أنّ اللسانيات الحديثة استفادت كثيرا في وضع قواميسها ومعاجمها ممّا نظّر له القدامى في مجال الدلالة والكلام ألفاظا ومعاني. فنرى الباحثين المحدثين ينطلقون من المصطلح القديم ليبحثوا له عن مرادف في التفكير الحديث وأحيانا تكون العمليّة عكسيّة فيقع الانطلاق من الحديث للبحث عن مترادفات لتلك المصطلحات في التراث اللغويّ، لاسيّما إذا ما تعلّق الأمر بالمعاجم اللسانيّة المتخصّصة التي تتطلّب الوضوح والدقّة[2].

ويعتبر مصطلح «المعنى» أو ما يُعبّر عنه اليوم sémantique من أكثر المصطلحات شيوعا في التّراث اللغوي والتفكير اللسانيّ الحديث، وقوبل «علم المعاني» في التراث بـ«علم دلالة المعاني» في الحديث، وتمّت مقابلة Sémantique linguistique اليوم بـ«علم المعاني اللغوي».

نستنتج من خلال هذه المقابلات المختلفة للمصطلحات التي تتنزل في دائرة المعنى بين القديم والحديث، أنّ العمل في هذا المجال يحتاج إلى زيادة التدقيق والضبط. فقد أصبحنا اليوم نجد مصطلحات متعدّدة تدلّ كلّها على المعنى من ذلك عبارة «نظرية الحقول الدلالية» و «ثنائيّ الدلالة» و«مجال صريف دلاليّ» و«تحوّل دلاليّ» وغير ذلك من المصطلحات.

وتبعا لعلم الدلالة الحديث وضع اللسانيّون وعلى رأسهم سوسير مصطلحي signifiant و signifié «الدال والمدلول» يعبّرون بهما عن ثنائيّة «اللفظ والمعنى» في التراث العربيّ . ولكنّ الإشكال حسب رأيي يتلخّص في تحديد مدى استجابة المصطلحات الحديثة المعرّبة للمصطلحات القديمة لاسيّما وأنّ مصطلح اللفظ يتّخذ معاني عديدة في التراث مثلما بيّنا آنفا في بحثنا؛ إذ هو بين المفردة والتركيب أو الصياغة والعبارة لذلك لابدّ حسب تقديري من مقابل مناسب يعبّر عن المصطلح الجديد في التراث أو المصطلح القديم في الحديث لكن شرط تجنّب الإسقاط والبحث

(1) المصدر نفسه، ص184.

(2) انظر: محمود (إبراهيم كايد)، المصطلح ومشكلات تحقيقه، ص25.

عـن الجديد في القـديم بتعصّب، سعيـا للتأصيل أو الانفتاح على الحديث.

وتتـسع دائـرة البحـث في المصطلحـات ومـا يقابلها في التراث اللغويّ في مجالاته المختلفة نحوا وبلاغة تجمـع بين الاستعـارة والتوليـد والابتكار حتّـى تواكـب البحـوثُ العربيـة الحديثـة العلومَ اللسانيّـة ومصطلحاتهـا المستحدثـة. لـذا نقابل اليوم المصطلـح الفرنـسي structure بمصطلح «التركيـب»، كمـا نقابـل المصطلـح الفرنـسيّ sémantique structurale بالمصطلـح العربـيّ «الدلالة التركيبيّة»[1].

تلـك جملـة مـن الملاحظـات العامـة بـشأن المصطلـح البلاغي ومراحل تطـوّره انطلقنا فيها مـن النظـر في وضع المصطلح في الـتراث اللغوي وحاولنا البحـث في امتداداته في التفكير اللسانيّ الحديـث. وأملنـا مـن ذلـك صوغ مصطلحـات بلاغيّة تتميّز بالدقّة والوضوح تحقّق التواصل بين مستعمليها يجمعها العلماء في معاجم خاصّة.

الخاتمة

نستنتج ممّا سبق أنّ مسألة البحث في المصطلح البلاغـيّ أمر شديـد التعقيد لضبابيـة الرؤية في البحـوث اللغوية القديمـة وذلك لتعـدّد المفاهيم للمصطلـح الواحـد. ويعتـبر مـا تـوصّل إليه بعد القاهـر الجرجاني أهم ما بلغـه التفكير البلاغي العربي القديم كلـه عندما حدّد البلاغة بضوابط النحـو ووجوهه وفروقه ممّا صبغ كلّ مصطلحات البلاغة بصبغة واحدة هي النحو.

لقـد مثلـت نظرية النظـم أهم نظريـة قامت عليهـا البلاغة القديمـة؛ إذ وحّـدت بين مختلف العنـاصر المـؤسسة للكلام لا سيمـا بين عنصري اللفـظ والمعنى عندمـا جعلهما الجرجـاني أصل الكلام معا وإن كان المعنى سابقا اللفظ في الزمن باعتبـار أسبقيتـه في النفس، واللفـظ يأتي لاحقا حتـى يترتب حـسب ترتيب المعـاني في النفس بما يقتضيـه العقـل ومـا يقتضيـه القـصد والإفادة وعناصر المقام.

ونستنتـج أمـرا آخـر نـراه جديـرا بالاهتمام يتمثّل في «الدلالة»، هذا المصطلح القديم الجديد، فالدّلالـة عنـد عبـد القاهر هـي دلالـة التركيب لا المفـردة، وتحصل من ائتـلاف مختلف عناصر الكلام حسب التعلق النحوي المعتمد فيما بينها.

نضيـف إلى ذلك أنّ هذه النظرية قد تضمّنت تحـت مقولـة النظـم مصطلحـات عديـدة مثـل مصطلـح «المعنـى» و«معنـى المعنـى» و«التفسير» و«المفسّر» وغيرها ممّا هو تحت طائلة النظم ولها مفاهيم خاصة عند الجرجاني عندما جعلها قائمة علـى مفهـوم نحويّ، نضيـف إلى ذلـك مصطلح «الـصّورة» الـذي أحاطـه بتعريف شامـل يقول: «واعلم أن قولنا» الـصّورة «إنّما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا، على الذي نراه بأبصارنا».

ويتجاوز ذلك التعريف ليبيّن فعلها (الصورة) وأثرها في السامع؛ إذ يقول: «فالاحتفال والصنعة في التـصوّرات التـي تـروق السامعـين وتروعهم، والتخيّـلات التي تهز الممدوحين وتحركهم، وتفعل فعلا شبيها بما يقع في نفس الناظر إلى التصاوير التي يشكّلها الحذّاق بالتخطيط والنقش أو النحت

(1) انظر: A . J. Greimas, Sémantique structurale, p6

والنقـر، فكما أن تلك تعجـب وتخلب وتروق وتونق وتدخـل مـن مشاهدتهـا حالـة غريبـة لم تكـن قبـل رؤيتها، ويغشاهـا ضرب من الفتنـة لا ينكر مكانه...»[1].

فمسألـة المصطلـح تبقـى أمـرا رهـين مستحدثـات التفكير اللسانيّ ومـا يطرأ عليه من صنـوف الإضافـات والتجـاوز. ويعـود الفضل في تحقيـق ذلك إلى جهـود الباحثين في هـذا المجال معجميّين ولسانيّين وغيرهم بالنّظر في خبايا اللغة وأسرارهـا لوضع جهـاز مصطلحـيّ موحّد يكون ذريعـة يستخدمهـا كلّ من رام البحـث في الدلالة والمعنى والكلام في المجالين البلاغي والنقدي.

بيبليوغرافيا

المصادر:

- القرآن الكريم
- الباقـلاني، إعجاز القـرآن، بيروت، عـالم الكتب، ط1، 1988.
- الجاحـظ (أبو عثمـان)، البيـان والتبيـين، ج1، تحقيق عبـد السلام هـارون، ط 3، مطبعة الخانجـي، القاهرة 1968.
- الجرجـاني (عبـد القاهـر)، أسرار البلاغـة، تحقيـق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، 1991.
- الجرجاني (عبد القاهر)، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، مكتبة الخانجي، دت.
- الخطابـي، بيان إعجاز القـرآن، تحقيق محمد خلف الله ومحمـد زغلـول سلامـي القاهـرة، دار المعـارف، ط4، 1995.
- الرمـاني، النكت في إعجاز القـرآن، تحقيق محمد خلف الله، د. محمـد زغلـول سلام، ط3، نـشر دار المعـارف، مصر، 1976.
- الزركشي (بدر الدين)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، نشر دار التراث، (د.ت).
- السكاكي، مفتاح العلوم، المحقق: عبد الحميد الهنداوى، دار الكتب العلمية، 2000.
- العسكـري (أبو هلال)، الصناعتـين الكتابة والشعر، تح علـي محمد البجـاوي ومحمد أبو الفـضل ابراهيم، نشر عيسى البابي الحلبي، 1952.
- ابن فـارس (أحمد الـرازي)، معجم مقاييـس اللغة، تح عبد الـسلام محمد هارون، بـيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ج6، 1979.
- الهمـذاني (عبـد الجبـار)، المغنـي في أبـواب التوحيد والعدل، تحقيـق: أمين الخـولي، وزارة الارشاد القومي، مصر: دارالكتب، 1960.
- المراجع العربية والمعرّبة:
- بيفريدج (و. إ)، فنّ البحث العلمي، ترجمة زكريا فهمي، مراجعـة د/ أحمد مصطفى أحمد، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة 1963.
- حجازي (محمود فهمي)، الأسس اللغوية لعلم المصطلح، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. د.ت.
- حطاب (أحمد)، المصطلحات العلمية وأهميتها في مجال الترجمة، العلوم الطبيعيـة كنموذج «في الترجمة العلمية (ندوة لجنـة اللغة العربيـة الأكاديمية المملكـة المغربية، طنجـة، 11-12 ديسمـبر 1995 الربـاط، مطبوعـات أكاديمية المملكة المغربية.
- حمـدي (توفيـق): مواقـف البلاغيـين والنقـاد العـرب القدامـى مـن الاستعارة، نـشر دار محمـد علي الحامي بـالاشتراك مـع المعهـد العـالي للغـات بتونـس، تونس، 2007.
- الحمـزاوي (رشاد)، مـشاكل وضع المصطلحات اللغوية، اللسان العربي عدد1/18، 1980.

(1) الجرجاني (عبد القاهر)، أسرار البلاغة، ص297.

- الخطيب (أحمد شفيق)، حول توحيد المصطلحات العلمية، من محاضرات مجمع اللغة العربية في مؤتمره 59، القاهرة 12 26 أفريل 1993، بيروت، لبنان.
- الزيدي (توفيق): جدلية المصطلح والنظريّة النقديّة، ط1، قرطاج 2000.
- صمّود (حمّادي): التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس،منشورات الجامعة التونسية، المطبعة الرسمية، 1981.
- صمود (حمادي)، من تجليات الخطاب البلاغي، دار قرطاج للنشر والتوزيع، 1999.
- صمّود (حمادي) والمهيري (عبد القادر) ود (المسدي (عبد السلام): النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص، الدار التونسية للنشر، 1988.
- القاسمي علي، مقدمة في علم المصطلح، بغداد، 1985.
- مجموعة من الأساتذة الجامعيّن، تأسيس القضيّة الاصطلاحية، بيت الحكمة، قرطاج، 1989.
- محمود (إبراهيم كايد)، المصطلح ومشكلات تحقيقه، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 97، 2005.
- محمود (زكي نجيب)، حصاد السنين، دار الشروق، بيروت، ط1، سنة 1992.
- المسدي (عبد السلام)، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس1984.
- المسدي (عبد السلام)، المصطلح النقدي، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع، تونس 1995.
- المسدي (عبد السلام)، قاموس اللسانيات، الدار العربية للكتاب، تونس1984.
- المسدي (عبد السلام)، قراءات مع الشابي والمتنبي والجاحظ وابن خلدون، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1984.
- مطلوب أحمد، معجم المصطلحات البلاغية وتطوّرها، بغداد، المجمع العلمي العراقي.
- الناقوري إدريس، المصطلح النقدي في نقد الشعر، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982.

المراجع الأجنبية:

- A. J. Greimas, Sémantique structurale, ed, Libaririe Larousse, Paris 1972 .
- Dubuc (Robert), Manuel pratique de terminologie, Montréal et Paris: linguatech et conseil internationale de la langue Française, 1980.
- Iser (Wolfgang), l'acte de lecture, théories de l'effet esthétique, Bruxelles, Mardaga, 1985.
- Rey (Alain), la terminologie: noms et notions, Paris, 1979.